الفصل الثاني: سيدنا يعقوب عليه السلام سلوك الإرسال وقوته

(يهتم هذا الفصل بتجلية خطاب سيدنا يعقوب عليه السلام المرسل الثاني في سورة يوسف، وعليه أيضا مدار القص من افتتاحية السورة حتى نهايتها، وهذا الفصل يرصد لخطاب المرسل المفعم بالحكمة والتفويض، وبث القيم الإيمانية السمحة، والصبر على صروف الدهر وأحداثه، أما المتلقون لخطابه عليه السلام داخل السورة، فسيدنا يوسف عليه السلام، ثم أبناء سيدنا يعقوب...).

سبق في الفصل السابق، الوقوف على الآيات التي جاء فيها سيدنا يوسف عليه السلام مرسلًا، وجاء فيها سيدنا يعقوب متلقيًّا وهي:﴿**إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ**﴾ [يوسف:٤]

وقوله تعالى:﴿**وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ على الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعليمُ الْحَكِيمُ**﴾ [يوسف:١٠٠].

وفي هذا الفصل نبحث في سلوك المرسل ، وهو سيدنا يعقوب عليه السلام داخل لحمة الخطاب عامة، وأطراف التلقي الموجودة داخل السورة. حيث جاء سيدنا يعقوب عليه السلام مرسلا، وسيدنا يوسف متلقيا في الآيات:﴿**قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ على إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٥) وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عليك وَعلى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا على أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عليمٌ حَكِيمٌ (٦)**﴾ [يوسف:٥-٦].

وكذلك إخوة يوسف، في صورة المتلقي وسيدنا يعقوب مرسلًا في الآيات: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣)﴾، وقوله تعالى:﴿وَ جَآؤُوا على قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ على مَا تَصِفُونَ (١٨)﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عليه إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ على أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤)﴾، وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حتى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ على مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦) وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عليه تَوَكَّلْتُ وَعليه فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ(٦٧)﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعليمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفي على يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤)﴾، وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (٨٦) يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧)﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ (٩٤)﴾، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ على وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (٩٦)﴾، وقوله تعالى: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨)﴾.

أولاً: سيدنا يعقوب وسيدنا يوسف عليهما السلام:

المرسل (المتلقي)	←	(المتلقي (المرسل)
آية (٤) يوسف	↔	يعقوب (٥، ٦)

وقد سبق توضيح الآليات الحوارية المستخدمة من قبل المرسل الأول (سيدنا يوسف عليه السلام) وفي صورة تحول المتلقي (سيدنا يعقوب) إلى مرسل ثان، فإن آليات الحوار المستخدمة عنده، لابد أن تختلف عن آليات الحوار المستخدمة من قبل المرسل الأول، ذلك لأن الرتبة الاجتماعية: (صورة الأب في مقابل صورة الابن) وكذلك عامل السن (فعمر يعقوب قد تجاوز الستين عامًا أو يزيد.. في مقابل عمر يوسف الغلام) نبدأ بحصر آليات المرسل الثاني التي كان فيها متلقيًّا، ثم تحول إلى مرسل في صورة تؤكد عدم استعداده لطرح قضية معينة، هو فقط مرسل ثان أمليت عليه القضية، ولذلك أتت ردوده تفصيلية إرشادية.

القوة الإنجازية في الخطاب:

نلمح قوة الخطاب و إنجازيته، من خلال الاتكاء على مجموعة من الإجراءات داخل الآيات: قوله تعالى:﴿**قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ على إِخْوَتِكَ**﴾[يوسف:٥] الاعتماد على النداء مع حضور المخاطب طلبًا لحضور الذهن، ودلالة ذلك على أهمية القضية المثارة، واهتمام المرسل/ المتلقي بها. والحكم برتبة المرسل وعلاقة النسب القائمة بين المرسل والمتلقي، حيث الأبوة المتحققة ليعقوب عليه السلام، في مقابل البنوة المتحققة ليوسف عليه السلام، والتصغير في (بني) كناية عن التحبيب والشفقة. مع تساوي النمط الاستخدامي بين سيدنا يعقوب، وسيدنا يوسف في البنيات اللغوية، كالنداء في قوله: (يا أبتي) = (يا بني)، وكذلك: (إني رأيت) = (رؤياك) ولجوء المرسل (يعقوب) إلى آلية

التكرار لتأكيد محتوى الرؤيا وتصديقه لما أتى به المرسل عليه السلام:﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾[يوسف:٥] وهذا من وحي الأنبياء.

بناء الردود على آلية منطقية نصحًا وإرشادًا ثم تدعيم ذلك بالسبب؛ من ذلك قوله تعالى:

﴿يا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ﴾ [يوسف:٥] (١) مقدمة (نصح وإرشاد)

﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا) [يوسف:٥] (٢) سبب

﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾[يوسف:٦] (٣) تفصيل وإجمال

﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٦] (٤) ....

﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عليك وَعلى آلِ يَعْقُوبَ﴾[يوسف:٦] (٥)

﴿إِنَّ رَبَّكَ عليمٌ حَكِيمٌ﴾[يوسف:٦] (٦) تدعيم

اتساع المدى الزماني في خطاب المتلقي/ المرسل (سيدنا يعقوب عليه السلام) قياسًا بالمدى الزماني لدى المرسل (سيدنا يوسف عليه السلام)، مع اتكاء المتلقي/ المرسل على ضمائر الخطاب الحاضرة، مما يؤكد حضور طرفي الاتصال في حالة التواصل: (رؤياك - إخوتك - لك - يجتبيك - ربك - يعلمك - عليك - أبويك - ربك) وتنوع هذه الضمائر الخطابية بين إسنادها للأفعال، مثل: (يجتبيك - يعلمك) وإضافتها للأسماء مثل: (رؤياك - إخوتك - ربك) والحروف مثل: (لك - عليك).

وقد عطف هذا الكلام على تحذيره من قص الرؤيا على إخوته، إعلامًا له بعلو قدره، ومستقبل كماله، كي يزيد تمليا من سمو الأخلاق، فيتسع صدره

لاحتمال أذى إخوته، وصفحًا عن غيرتهم منه، وحسدهم إياه ليتمحض تحذيره للصلاح، وتنتفي عنه مفسدة إثارة البغضاء ونحوها[1].

ثانيًا: سيدنا يعقوب عليهم السلام مع أبنائه:

انعقد الحوار بين سيدنا يعقوب عليه السلام، وبين أبنائه في العديد من الآيات، وقد جاءت صور الحوار متقدمة في افتتاحية أحداث القص، وختمت بها السورة، وذلك عندما التقى يوسف عليه السلام بأبيه وباقي الأسرة، ويمكن تقسيم خطاب سيدنا يعقوب في صورة المرسل إلى أربعة أقسام، طبقًا لتفاعل الحدث داخل القصة أو السورة.

أ - الخوف على سيدنا يوسف عليه السلام:

يمثل ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ(١٣)﴾ وقوله تعالى: ﴿وَ جَآؤُوا على قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ على مَا تَصِفُونَ (١٨)﴾.

سلوك الهيئة الاتصالية:

اتسم خطاب المرسل بجملة من المبادئ الأخلاقية السامية منها حسن الظن في سلوك المتلقي، وما يأتي به من تصرفات (أبناء يعقوب عليه السلام) فحسن الظن مقدم على غيره، وإنما جاء حزنه لبعد يوسف عليه السلام عن أبيه يعقوب: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ﴾[يوسف:١٣].

ارتباط الأفعال الدالة على الحالة الشعورية الصادقة (المعنوية) بالمرسل في مقابل الأفعال الدالة على السلوك الحركي، الخاصة بالمتلقي: (ليحزنني - أخاف) (تذهبوا -غافلون).

(١) سورة سيدنا يوسف. التحرير والتنوير، ٢١٥، ج ١٢.

التأكيد على جوهر القضية الأساسية عن طريق استدعاء الأطراف الأساسية في البنية اللغوية من جانب المرسل، حيث يؤكد سيدنا يعقوب عليه السلام على حضور سيدنا يوسف داخل خطابه من خلال الضمير الغائب (هو) في إضافة الضمير الدال على الغائب للحرفين: (به -عنه) وفي الفعل مثل (يأكله).

ويضاف إلى السابق أيضًا مجموعة المحددات الأسلوبية الآتية، والتي جاءت في الآية الثانية:﴿**وَ جَآؤُوا على قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ على مَا تَصِفُونَ**﴾ (يوسف: ١٨).

الشك في الخطاب المقدم من خلال الأدوات المستخدمة مثل البدء بحرف الإضراب (بل) بقصد إبطال دعواهم في أن الذئب أكل سيدنا يوسف حقًّا، وفي هذا إلماح لهم بكذبهم، مع عدم القطع بجنس ما وقع لسيدنا يوسف عليه السلام، فالإبهام في كلمة (أمرًا) يحتمل عدة أشياء، مما يمكن أن يوقعوه بسيدنا يوسف عليه السلام، من قتل أو بيع أو تغريب والتنكير في (أمرًا) للتهويل. مع التفويض لله بطلب الصبر، الأمر الذي يؤكد عدم ثقة يعقوب عليه السلام في خطاب أبنائه، وشكه في خطاب المتلقي.

غلبة الوصف على خطاب المتلقي دون الإخبار، فالتعبير الوصفي (الإنشائي) لا يعطي قوة إنجازية للمفردات مثلما يقدمها الخطاب الإخباري، فقول يعقوب عليه السلام متشككًا في الخبر: ﴿**وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ على مَا تَصِفُونَ**﴾ و(التعبير عما أصاب يوسف -عليه السلام- «بما تصفون» في غاية البلاغة، لأنه كان واثقًا بأنهم كاذبون في الصفة، وواثقًا بأنهم ألحقوا بيوسف عليه السلام ضرًّا، فلما لم يتعين عنده المصاب أجمل التعبير عنه إجمالًا موجهًا، لأنهم يحسبون أن ما يصفونه هو موته بأكل الذئب إياه، ويعقوب عليه السلام يريد أن ما يصفونه هو

المصاب الواقع الذي وصفوه وصفًا كاذبًا، فهو قريب من قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[1].

القوة الإنجازية في الخطاب:

تعرف النظرية السيميائية بأنها دراسة حياة الإشارات داخل المجتمع، ذلك أن لكل إشارة أو علامة دلالة خاصة يفهمها المتلقي ويتجاوب معها اتصاليًّا، رفضًا أو موافقة، وقد استعان الأسلوب القرآني بهذا اللون من الإشارات والتي تعتبر وحدات رئيسة في إنماء الحوار، والحدث السردي داخل السورة مع ربط المتلقي بغايات الخطاب، الأمر الذي يولد للقصة حيوية وديناميةً، وأكثر حقول الوحدات السيميائية الدالة، وردت في خطاب يوسف مع أبيه يعقوب عليهما السلام مثل: (أحد عشر كوكبًا، الشمس، القمر، ساجدين، الشيطان...) فالوحدات كلها سيميائية، متعلقة بالبنية السردية للقصة، فـ «أحد عشر» إشارة إلى إخوة يوسف، والقمر إشارة إلى يعقوب، والسجود فعل يشير إلى التواضع، ودخولهم تحت إمرته، وما سيكون عليه حاله في المستقبل، ولذلك نهاه يعقوب عن الحكي والإفصاح، وهذه الغلبة السيميائية، فنجدها ممثلة أصدق تمثيل في الآيات التي نحن بصددها، حيث احتلت كلمة (الذئب) موقعًا حيويًّا، وتكررت في ثلاثة مواضع: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ (١٤)﴾ و﴿قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ (يوسف ١٧). وهذه العلامة «ذئب» ترمز إلى المكر والخداع والخيانة وسلوك الافتراس[2].

(١) التحرير والتنوير، ج١٢، ص٢٤٠. سورة يوسف.

(٢) دفة قاسم: بنية الخطاب السردي في سورة يوسف. دراسة سيميائية. ص٥، ٦. بحث مقدم ضمن الملتقي الوطني الرابع «السيمياء والنص الأدبي». شبكة المعلومات الدولية.

ب - يعقوب يخاطب أبناءه بشأن الكيل:

هذه هي حالة الاتصال الثانية في حوار يعقوب مع أبنائه، وفيها يطلب الأبناء أخًا لهم من أبيهم، بعد أن منع يوسف عليه السلام منهم الكيل، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٥٩) فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ (٦٠)﴾

أما الآيات التي اهتمت بتجلية هذه الحالة فقوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عليه إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ على أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤)﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حتى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ على مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦)﴾ وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عليه تَوَكَّلْتُ وَعليه فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧)﴾.

سلوك الهيئة الاتصالية:

يلحظ على المعطى الحواري لهذه الآيات أو سلوك المرسل إنهاء الجمل الحوارية بقضايا إيمانية، تتضمن الثناء والتفويض، واستمداد القوة والفضل من الله، من ذلك قوله تعالى:﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[يوسف:٦٤] وقوله تعالى:﴿قَالَ اللَّهُ على مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف:٦٦] وقوله تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عليه تَوَكَّلْتُ وَعليه فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف:٦٧]. مع الاعتماد على الأساليب الإنشائية في البناء اللغوي لحوار المرسل من ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عليه﴾ [يوسف:٦٤] الاستفهام الاستنكاري. ﴿يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن

بَابٍ وَاحِدٍ وَ ادْخُلُواْ﴾[يوسف:٦٧] النداء والأمر. والمعنى أن يعقوب عليه السلام قال لأبنائه لن أرسل بنيامين معكم إلى مصر حتى تعطوني ما أتوثق به، يكون من عند الله، لأن الحلف بالله مما تؤكد به العهود وتُشدد، والتنكير يفيد التعظيم والتفخيم كما ورد في الآيات[١].

وتقديم الجار والمجرور في: ﴿عليه تَوَكَّلْتُ وَعليه فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[يوسف:٦٧] يفيد اختصاص التوكل وقصره على من له الحول والقوة في الحفظ والرعاية، ولا يكون التوكل إلا على من اكتملت له صفات الكمال، وإلى ذلك أشار أبو السعود في تفسيره «قدم الصلة (عليه) للاختصاص، وقصر التوكل المذكور على الله دون ما عداه، لا على سبيل الاشتراك، كما قدم توكله -عليه السلام -(عليه توكلت) لإلقاء سببية فعله لكونه نبيًّا لفعل غيره من المقتدين به (أن يكون قدوة لغيره)»[٢].

وهناك الاستدلال المنطقي المعتمد على الأدلة الواقعية، من ذلك في خطاب المرسل/ سيدنا يعقوب:﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عليه إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ على أَخِيهِ مِن قَبْلُ...﴾[يوسف:٦٤]. وكذلك المباشرة في عرض الفكرة، وتعرية سلوك المتلقي من ذلك: مباشرة المرسل / سيدنا يعقوب عليه السلام في رفض عرض أبنائه بإرسال أخيهم معهم فقال عليه السلام:﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ﴾[يوسف:٦٦] ثم تقديم السبب الذي يدحض رأي المتلقي/ أبناء يعقوب: ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عليه﴾ [يوسف:٦٤].

وتجاوب المتلقي مع خطاب المرسل يعني نجاح التواصل، وهو معنى يقصد به قياس درجة تفاعلية المتلقي مع المرسل، واتساق الخطاب بين الطرفين (المرسل والمتلقي) وبقاء حالة الاتصال قائمة، ذلك أن خطاب المرسل قد أحدث تأثيرًا في

(١) الزمخشري: الكشاف. ج٣، ص٤٥٩.
(٢) أبو السعود: إرشاد العقل السليم.ج٣، ص١٦٣.

سلوك المتلقي فقد اقتنع أبناء يعقوب بحديث الأب، ومن ثم رجعوا إليه كما في قوله تعالى:﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ على مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾[يوسف:٦٦].

اتسم الخطاب بروح الترفق والتحبب حيث لجأ المرسل/ يعقوب إلى أسلوب النداء بقصد النصح والإرشاد لأبنائه، وسياقية النصح والإرشاد تقتضي النداء الحميمي من الأب لأبنائه:﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾[يوسف:٦٧].

القوة الإنجازية في الخطاب:

تنوع الاستخدام الفعلي بين الحركي والمعنوي في خطاب المرسل، حيث يظهر ذلك بوضوح في الآيات المشار إليها سابقًا، حيث اتكأ سيدنا يعقوب عليه السلام في خطابه على الفعل الحركي/إنجازي (أرسل) في قوله: ﴿لن أرسله..﴾ مسندًا الأفعال إلى الضمير المستتر (أنا) وكذلك الأفعال الأدائية (آمن) في قوله: ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عليه﴾ [يوسف:٦٤] والفعل (أُغني) في قوله: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [يوسف:٦٧]، والفعل (أتوكل) في قوله: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عليه تَوَكَّلْتُ وَعليه فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُون﴾ [يوسف:٦٧].

وضمانًا لتوازن الخطاب بين طرفيه (المرسل والمتلقي) أسند المرسل/ يعقوب الأفعال الحركية / الإنجازية للمتلقي فقط (الأبناء) وفي ذلك مراعاة للمستوى العمري، فأبناء يعقوب هم الأحدث سنًّا والأقوى أداء مراعاة لكينونة الجسد: مثل الفعل (أتى) الدال على الحركة ثلاث مرات في قوله تعالى: ﴿قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾[يوسف:٥٩]،وقول: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي﴾ [يوسف:٦٠]، وقوله: ﴿حتى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ [يوسف:٦٦]، والفعل (دخل) الدال على الحركة مرتين في مثل قوله:﴿لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَ﴾ [يوسف:٦٧] و إسناد الفعل (يُحاط) إلى المجهول في قوله:﴿إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف:٦٦]

يقصد به «الأخذ بأسر أو هلاك مما هو خارج عن قدرتهم، وأصله إحاطة الجيش في الحرب، فاستعمل مجازًا في الحالة التي لا يستطاع التغلب عليها»[1].

ارتفعت نسب التكرار بكافة أنواعه في سلوك المرسل، حيث اتبع المرسل في هذه الآيات آلية التكرار كإحدى وسائل الربط المعجمي، والمتنوع بين الحرفية والفعلية والاسمية، وليحقق مناحي بلاغية أخرى تقدمها آلية التكرير منها التوكيد واتساع الدلالة، وثقة المتلقي في خطاب المرسل. ومن صور التكرار على مستوى:

الحروف: (عليه / ٣) (على / ٢) (إلا / ٣) (من / ٦) (الفاء / ٣) (الباء / ٢).

الأفعال: (آمنكم /٢) (يأتي / ٣) (نقول / ٤) (يدخل / ٢) (نتوكل /٢)

الأسماء: (الله / ٥) (موثق / ٢) (باب / ٢).

ج - يعقوب عليه السلام بعد غياب الابن الثاني:

وتمثل هذه الحالة الآيات قوله تعالى: ﴿**قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعليمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفى على يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤)**﴾.وقوله تعالى: ﴿**قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (٨٦) يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧)**﴾.

(١) التحرير والتنوير، ج١٣، ص١٩.

سلوك الهيئة الاتصالية:

اعتماد سلوك النصح والإرشاد في رسالة هداية تليق بالنبي يعقوب عليه السلام، وهي آلية تقترب من خطاب المرسل في كافة صوره داخل السورة، من ذلك: ﴿**إِنَّهُ هُوَ الْعليمُ الْحَكِيمُ**﴾[يوسف:٨٣] وقوله تعالى:﴿**لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**﴾[يوسف:٨٧].ثم الدعاء والتفويض إلى الله في سلوك هداية من نبي لأبنائه أو أب لأبنائه، من ذلك قوله تعالى:﴿**عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا**﴾ [يوسف:٨٣]، وقوله تعالى:﴿**قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إلى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾[يوسف:٨٦].

وكذلك البدء بالإخبار في صدر الآيات ثم اختتامها بالأسلوب الإنشائي حيث الدعاء أو النصح، من ذلك قوله تعالى:﴿**قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعليمُ الْحَكِيمُ**﴾[يوسف:١٨]، و كذلك ﴿**يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ الله**﴾ [يوسف:٨٧].

القوة الإنجازية في الخطاب:

التأكيد على شك المرسل في سلوك المتلقي، وتدعيم القضية بالبرهان واتخاذ التكرار وسيلة في قوله تعالى :﴿**قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ**﴾**(٨٣) والتى سبق استخدامها في موقف سابق بالبنية اللغوية نفسها في قوله تعالى** :﴿**قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ**﴾[يوسف:١٨].

وأمام تأكد المرسل، وشكه في سلوك المتلقي، يستحضر بنية لغوية مخالفة لما ورد في الموقف الأول، ضامًّا القضيتين في تجل واحدٍ:﴿**عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعليمُ الْحَكِيمُ**﴾ [يوسف:٨٣]. يغلب على خطاب

المتلقي (أبناء يعقوب) الاستعانة بوسائل الاتصال غير اللفظي، بخلاف خطاب المرسل (يعقوب) الذي ندرت فيه الاستعانة بالوسائل نفسها، وفي الموقف الذي نحن بصدده نجد المرسل يستعين بالسلوك الحركي الذي يوصف الحالة النفسية داخل خطابه:﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ [يوسف:٨٤] أي ذهب بعيدًا، ولم ينظر لهم، مع اختتام المشهد بالنداء العذب الرقيق، لبقاء التواصل كما سبق في المشهد السابق عبر الآيتين: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ....﴾، وقوله تعالى: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾[يوسف ٨٧].

أما الآية العمد في هذا المشهد فجاءت من سلوك المتلقي (أولاد سيدنا يعقوب عليه السلام) وفي قوله تعالى:﴿قَالُواْ تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حتى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾[يوسف٨٥] وقد ورد هذا القسم من إخوة يوسف عليه السلام بعدما نفوا المجيء للإفساد أو السرقة. وفي هذه اللوحة يقسمون لأبيهم تعجبًا منه، لكونه لا يزال يذكر ابنه بعد هذا العمر.

وروي أنه ما جفت عيناه من فراق يوسف إلى لقائه ثمانين عامًا، وقال الزمخشري «فهو كظيم» فهو مملوء من الغيظ على أولاده ولا يظهر ما يسوؤهم[١] حيث ورد أنه ظل يذكره بعد سن الثمانين، والمقسم عليه هو قوله تعالى: ﴿تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حتى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ (يوسف٨٥) والجواب هنا جملة فعلية فعلها مضارع مسبوق باسم من أخوات كان، وهو (ما فتئ) وحذف حرف النفي، واختيار الفعل (تفتأ) يتناسب مع السياق والمقام الذي فيه سيدنا يعقوب عليه السلام، لأن من معاني الفعل فتئ (سكن وانطفأ ونسي) فما زال يذكر ابنه الذي فقده منذ كان غلامًا، وما زال يبكيه حتى ابيضت عيناه من الحزن.

(١) البحر المحيط. ج٥، ص٣٣٣ - ٣٣٤.

أما جواب المتلقي فقد جاء في صورة رسالة، قال تعالى:﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعليمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفى على يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾[يوسف: ٨٣ – ٨٤].

د- يعقوب يلتقي بيوسف وإخوته:

يمثل هذا المشهد الآيات:﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ (٩٤) قَالُواْ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ على وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٩٦)﴾[يوسف:٩٥ – ٩٦]. وقوله تعالى:﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٨]

سلوك الهيئة الاتصالية:

ما قيل في المحددات الأسلوبية الخاصة بالمشاهد السابقة، ينطبق بعضها على هذا المشهد في بلاغة قرآنية تحكم بتوازي (خطاب المرسل/ سيدنا يعقوب) مع أبنائه في كافة سياقات القصة، ونستطيع أن نقرأ المحددات الأسلوبية الخاصة لأطراف الاتصال في هذه الآيات أو هذا المشهد الذي يسبق لقاء يوسف عليه السلام بأبيه و إخوته، وجملة حضور كانوا مع يعقوب قبل حضور أبنائه، إذ كانوا في الطريق حال قوله تعالى:﴿إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [يوسف:٩٤] و يغلب على آيات هذا المشهد ما يأتي: البعد عن الأدلة العقلية والنقلية في الخطاب، واعتماد الأدلة الإيمانية طرفًا استدلاليا داخل القضية، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾[يوسف:٩٤] ولم يكن يعقوب عليه السلام مع العير حال تحركها، كذلك إيجاد رائحة سيدنا يوسف التي ضمخها الريح بعد اثنين وعشرين سنة[١].

(١) التحرير والتنوير. الآيات.

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى:﴿**فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ على وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا**﴾[يوسف:٩٦] والقصد قميص يوسف الذي ألقي على وجه يعقوب، وطبقًا للأدلة العقلية أو المنطقية ليس هناك رابط بين القميص وقدرته في شفاء السقم، لولا المنطق الإيماني الذي اعتمده المرسل في خطابه داخل آيات هذا المشهد، والذي أنهاه بالبرهان الاستدلالي الذي يدل على ثقة المرسل من خطابه عند قوله:﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ [يوسف:٩٦].

قدمت الآيات بوصف للمشهد أو السياق الحالي للخطاب﴿**وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِير**﴾ [يوسف:٩٤]، ﴿**فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ**﴾[يوسف:٩٦]. ويبدو أن الاستعانة بهذه الأدلة السياقية كانت متعلقة بالمرسل أكثر من المتلقي، وفي الخطاب يستعان برسم سياق الحال ليساعد على فهم القضية، ووجودها في النص الحكيم يشكل طرفًا أساسيًّا في فهم القضية ، وقد كان من عادة الشعراء العرب وغيرهم أن يقدموا لقصائدهم بعرض سياق الحال الذي يهيئ المتلقي للنص وقضاياه.

لم يغير المرسل عادته الخطابية في الاتكاء على الرسالة الإرشادية في نهاية أو عجز كل آية، فقد كان يعقوب عليه السلام في أغلب الآيات عارضًا للقضية، منهيا خطابه بالنصح والإرشاد أو الدعاء مع سلوك التفويض البادي، نقرأ آيات هذا المشهد:﴿**سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ [يوسف:٩٨]، وكذلك قوله: ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ [يوسف:٩٦].

القوة الإنجازية في الخطاب:

الاعتماد في البنية اللغوية على طائفة متنوعة من الأساليب، وهي من سمات المرسل في كافة خطابه مثل أسلوب التوكيد في قوله تعالى: ﴿**إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ**﴾ [يوسف: ٩٤] والاستفهام التعجبي في: ﴿**أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾[يوسف: ٩٦]. تأكيد المرسل على وجوده الفاعل داخل خطابه، مما يعطي مصداقية وثقة لهذا الخطاب، والمضامين المحمل بها، من ذلك ضمير المتكلم في: (إني- ربي) وضمير الغائب الذي يحال إلى المرسل: (وجهه) والضمير المستتر في الأفعال (أجد - أعلم - أستغفر).

احتواء المشهد على محددات أسلوبية جديدة لم تأت في المشاهد الأخرى مثل: (حركة العير - وصول البشير - ريح يوسف - رجوع البصر) وهذه المحددات، وإن كان بعضها يلتقي بالمرسل، إلا أنها لا تدرس ضمن خطاب المرسل حيث إنها جاءت في صورة سياق الحال. ولما كانت الآيات في مشهد يسبق التقاء الأسرة بيوسف في مصر، بعد أن لمَّ الله شمل هذه الأسرة، فقد جاءت الأفعال الحركية بكثرة تناسب حركية الأحداث، وسرعة تناميها داخل بنية النص: (فصلت -قال - ألقى - جاء - ارتد) في مقابل الأفعال الدالة على تنوع كثير من الصفات المعنوية ودنيا المشاعر (أجد من الوجد) (أعلم) (أستغفر) وغيرها.